التّاريخ في منظور الفينومينولوجيا.

قراءة في فلسفة هوسرل.

أ.مراد قواسمي

أ. فينومينولوجيا التقوّم و استراتيجية التأجيل:

تعني الفينومينولوجيا (Phénoménologie) علم الظواهر (Phénomènes)، إذ تهتم بما يتجلى كما يتجلى من تلقاء نفسه، إنها تستمد معناها الحقيقي من "التوجّه إلى الأشياء نفسها" بتناولها قصد فهمها و توضيحها.[52]

التوضيح و الحالة هذه (Ercklarüng) وظيفة تستتبع إرادة القول و إضفاء الدلالة على الموضوعات و تنويرها (Aufcklärung) عبر الاتصال بها اتصالا مباشرا والتعبير عنها وفقا للدلالات المختلفة و تمييز بعضها عن بعض بفصلها عن الصور بتبيين مختلف الصيغ ذات الدلالات الفارغة و السماح لها بالامتلاء بمثول حدسي.[53] الفينومينولوجيا في إطارها الفلسفي و الأنطولوجي تحديد بنية الظواهر و شروطها العامة، وفقا لما يعنيها من مشكل "التجلي" (Apparence) و الانبثاق (Emergence) خلال اتصاله لأوّل مرة بالوعي اتصالا مباشرا، و رفع هذا الاتصال إلى مستوى "الماهيات" (Essence) لأجل رصد ماهية الظاهرة و هي بهذا تتميّز تماما عمّا يسمّى بدراسة الظاهرة النفسية (Psychique)، لتهتم بالوعي الخالص (Conscience pure)، و وفقا لما ينسب إليه موريس ميرلوبونتي (Merleau-ponty) فإن الفينومينومينولوجيا تريد تفسير العالم تفسيرا قبليا، يقع قبل كل تجربة، إنها تهتم بالتجربة كأوّل لقاء أنطولوجي بين الوعي والعالم، بما هو عالم الأشياء التي ينبغي قصدها.

إن ما يقصد بالشيء (Sache) عند هوسرل، و الذي يعني في اللغة الألمانية: موضوع الحديث و النقاش، يشير إلى أن الانشغال الأكبر للفينومينولوجيا ليس هو بالضرورة الأشياء المادية الماثلة في الطبيعة، بل بالأحرى ما يوجد في كل الأشياء سواء كانت مادية،

---

[52] Heidegger (M) : Être et temps (section I), traduit par : François Vezin, Coll : Bibliothèque de la philosophie, Gallimard, Paris, 1986, P62.

[53] Ricœur (P) : A l'école de la phénoménologie, troisième tirage, Librairie philosophique J Vrin, Paris, Appendice consacré à Husserl, P7.

صورية أو ثقافية لدى تناولها كموضوعات للتحليل[54] أو أساس ترى الوجود من خلاله كظاهرة محددة واضحة. من هنا فإن مجال اشتغال الفينومينولوجيا هو "الماهيات المجرّة" التي تختلف اختلافا كليا عمّا يتّصف بالحركية و التغير، عما يمكن تسميته بالواقع- الاجتماعي، الذي يعتبر بمثابة العرض (Contingence) للجوهر (Essence)، فالفينومينولوجيا لا تشتغل على الفعل الفردي، و الحياة الجزئية و لا حتى الفروع العلمية بعينها. إنها فلسفة الكلي و الكوني لأنها، و ببساطة، تعتمد إستراتيجية التّأجيل" (Epockhé)*، و هو ما يلمّح إليه هوسرل في كتاب "الأفكار" "إننا لا نتحدّث هاهنا عن مفهوم التاريخ (يقصد الأصل) فكلمة الأصل (Ursprung) لا تجبرنا كما لا تخوّل لنا التفكير في التكوين (Genèse) بمعنى السببية النفسية أو بمعنى التطوّر التاريخي"[55] زيادة على أن الفينومينولوجيا المتعالية لا تشتغل على الأحداث لأنها علما ماهويا (Science eidétique)[56] و لهذا يجب أن نتعارف على مفهوم الأصل بأنه يتماهى و يتطابق مع مفهوم الأساس (Fondement) و ياخذنا الوعي بذلك مهمة التقوّم (Constitution) لا بما هو "إبداع" أو "إنتاج" وجود الموضوعات، بما أن وضعية الوجود الانفعالي موضوعة بين قوسين (مؤجلة)، و كل فهم سببي/علّي (Causale) للتقوّم ينبغي إبعاده و لا التخلّي عنه، و بهذا فما يعنيه التقوّم مباشرة هو: "عطاء المعنى" (Donation de sens) و توضيحا للمعنى المعطى،

---

[54] Bruce Bégout: Edmund Husserl, in: Introduction à la phénoménologie, Coll Philo, Sous la direction de phillippe Cabestan, éd Ellipses, France, 2003, P11.

*لابد من الإشارة هاهنا إلى أن الترجمة المعتمدة لمفهوم الإيبوخي Epockhé هي: التعليق أو التوقّف، أي تعليق إصدار الأحكام و هو الأمر الذي يجعل الفينومينولوجيا علما وصفيا يبتغي الموضوعية العلمية، غير أن ترجمتنا لهذا المفهوم بـ"تأجيل" هو تأويل، أكثر منه ترجمة، نبتغي من ورائه الإشارة إلى أن هوسرل سيخوض في بعض القضايا التي كان قد أحجم عن الخوض فيها في بداياته الفينومينولوجية و بالخصوص في مرحلة "الأبحاث المنطقية" (1901 -1990) (Recherches logiques)، و من بين هذه الموضوعات نجد: التاريخ، الإله، الدّين، المجتمع، الدولة، الأنثروبولوجيا، بحيث لم ينفتح على هذا النوع من النقاشات إلا بانفتاحه على قضايا البين- ذاتية .(L'intersubjectivité)

[55] Voir : Husserl (E) : Idées directrices pour une phénoménologie et une philosophie phénoménologique pures, t I, traduit de l'allemand par : Paul Ricœur, éd Gallimard, Paris, 1950, §1.

[56] Ibid. Introduction.

و الوعي الذي يملك سلطة عطاء هذا المعنى هو وعي متعالي و بالتالي فإن كل شيء يحدث إنما يحدث على مستوى الوعي الترانساندانتالي، لا على مستوى العالم الخارجي[57].

إن الفينومينولوجيا بما هي فلسفة وعي لا تمنح التاريخ أي اعتبار أو امتياز، بل على العكس فإن الإنسان التاريخي هو مجرد لحظة، درجة من الاجتماعية، "طبقة" من العالم المتقوَّم و هو بذلك "مطمور" (Inclus) ككل تعال في الوعي المطلق، و يرجع الأمر إلى "الرّد الماهوي"(Réduction eidétique) الذي يؤخّر الحالات الفردية أوبالأحرى يغيّبها و لا يأخذ منها سوى المعنى و هو ما يحصل تماما مع التاريخ بما هو موضوع للتفكير (Noème).

فقد تمّ تأجيل البحث في التاريخ و في الإنسان و في الله بموجب هذه الضرورة المنهجية حتى أصبحنا نتوهّم بأن فلسفة هوسرل لا تناقش، بل ترفض إمكانية النقاش في مثل هذه الموضوعات ذات العلاقة الوطيدة بالتاريخ[58] و هذا المبرر الوحيد في نظر: إسرل و هو الوظيفة الأساسية في لعمل: التقوّم الذي يتمّ استيفاؤه من الخبرة/التجربة الترانساندانتالية القائمة على ترتيبات التحليلات المتعالية للموضوعات المدركة. إذ يجتمع عند المعنى الأساسي لكل محور من المحاور الجوهرية لمجموعة الوقائع بنوع من الترابية (hiérarchique) في مقامات الوقائع، و هو إذن (التقوّم) نظام إقبال الوقائع ذاتها على الوعي، بحيث لا زمان و لا تعاقب و لا تقدّم، سواء بالمعنى الطبيعي أو بالمعنى الجدلي، و إنما استدراك للأمر في نفس الموضع الذي يعطى للمعنى و للوجود بما أن "الوعي الخالص مجال زماني خاص، مجال للزمان الفينومينولوجي، أقصى مقاماته 'زمان مطلق' و إذن فالتقوّم هو استقصاء الأصول من حيث احتوائها على معنى ما يجدر إعطاؤه وفقا للمهمة المنوطة بالوعي القائم على وصف الموضوعات العطائية بما هي حدوس فارغة تحتاج على الامتلاء و المثول. إن هذا الامتلاء يحدث وفقا لمنطق التكوين الكلي والقبلي، أي لمنظور التاريخ بمعناه القبلي، أو الأصلي"[59].

تتضمّن الأصالة إذن معنى الفكر إمكانا، و لذلك فإن هذا النوع العلى من الفكر التأملي ينبغي ألا يخرج عن نطاق "الإيضاح الأصلي للمعنى" بما هو سيرورة التنقّل من الوجود

---

[57] Voir : Bruce Bégout, ibid. P26.

[58] Ricœur (P) : Husserl et le sens de l'histoire, in : A l'école de la phénoménologie, P24.

[59] أنظر: إنفرّو (ف): هوسرل و معاصروه (من فينومينولوجيا اللغة إلى تأويلية الفهم)، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2006، ص 44.

بالفعل إلى الوجود بالقوة من الرأي إلى العلم و الامتلاء و الوضوح، أي الامتلاء الذي يستمدّ وجوده من الماهية أصلا. ينبغي إذن على التحليل الفينومينولوجي بوصفه تحليلا تقوّميا أن يجمع بين وصف الكليات النموذجية المكوّنة للواقع و بين اقتفاء أثار التحوّل و النمو الذي يجعل من المعنى في الأشياء هيأة تكوينية تتصاعد من مقام إلى مقام، تتراوح بين الطبقات فتنتج تاريخا باطنا خاصا بها، فينومينولوجيا المعنى هي، بطريقة من الطرق التي تحكم منطق التقوّم، فينومينولوجيا تاريخية المعنى (L'historicité du sens) و لكن كيف يمكن مجرّد التفكير في أن الفينومينولوجيا تكتسب طابعا تاريخيا بالرغم من أن حضورها كفلسفة في صورته العامة هو حضور لفلسفة الوعي و تعبير عن إنجازاته الناتجة عن التفكير في الماهيات.

الموقف التاريخي و الفعل النقدي:

إن الشروع في البحث في مجال التاريخ قد كان وإجبا انتظار مرحلته من الانشغالات المنطقية إلى "أزمة العلوم الأوروبية و الفينومينولوجيا الترانساندانتالية" (La crise des sciences européennes et la phénoménologie transcendantale) مرورا بـ"الفلسفة بما هي علم صارم" (La philosophie comme science rigoureuse) الذي يتناول فيه نقدا للتاريخانية (Historicisme) ومنطقها، و بالأخص تاريخانية ديلتاي (Dilthey). على أن اهتمامه المباشر و رغبته الأصلية في التعبير عن موقفه من التاريخ نستشفه من بداية النص الذي تمّ تحريره بتاريخ 7 ماي 1935 والموسوم بـ"أزمة الإنسانية الأوروبية و الفلسفة" (La crise de l'humanité européenne et la philosophie) إذ يقول فيه:

"أريد في هذه المحاضرة، استرجاع موضوع لطالما تم تداوله هو موضوع الأزمة الأوروبية وتحديد اهميتها بإيضاء فكرة الإنسانية الأوروبية حقها و المنظور إليها من وجهة فلسفة التاريخ، أي بالمعنى الغائي، و عبر التطرّق للوظيفة الجوهرية، الممكن قيامها على عاتق الفلسفة و علومنا بمختلف فروعها، سأحاول إخضاع هذه الأزمة الأوروبية لإيضاح (Elucidation) جديد"[60]. الفكرة التي يسترجعها هوسرل هاهنا قد تمّ تناولها سابقا من وجهتها التاريخانية، في صورة الفلسفة الهيغلية، غير انه يلمّح إلى ضرورة إعادة توضيحها بناء على المفاهيم التالية:

[60] Husserl (E) : La crise de l'humanité européenne et la philosophie, éd : Aubier, édition bilingue, traduit par : Paul Ricœur, 1977, Paris, P13.

"الأزمة"، "الإنسانية الأوروبية" و "الفلسفة" و بالتالي فهو يرفع واقع أوروبا على مستوى المفاهيم التي يستأنف التفكير فيها من منظور كلي، يجعلها ترتقي إلى مقام "الظاهرة" العلمية (كموضوع للفينومينولوجيا)، علما أنه حينما يعمل على قراءة "الإنسانية الأوروبية" فالأرجح أنه يقصد الحداثة (modernité) التي تختلف تماما عن "الإنسانية" بما هي "غاية" (télos).

يحمل مفهوم "الأزمة" (Krisis) معنى الرفض و المنطلق النقدي للواقع الأوروبي الحديث، هو واقع انحطاط العقل الحديث الذي تم وسمه بـ: الانحطاط الروحي للغرب، فقد عجز هذا الخير (العقل) عن فهم راهن الزمان و علومه و استكناه معناه، علما أن استكناه المعنى ليس يعني حساب البداية و لا النهاية، أي دراسة الغاية و التناهي، و هو ما يؤكده هوسرل في عمله "الفلسفة بما هي علم صارم" "حتى نتكلّم على غرار لوتس (Lotze) فإن "حساب مجرى العالم لا يعني فهما له". ولكننا مع علوم الروح لسنا أيضا بأوفر حظ، فـ"فهم" (Comprendre) حياة فكر الإنسانية، مما لا شك فيه، عمل رائع وعظيم، و لكن لسوء الحظه فإن هذا الفهم لا يقدّم اية إعادة و لن ينصهر مع فهم النظام الفلسفي الذي ينبغي أن يكون موافقا لفكّ ألغاز العالم و الحياة".[61]

يختلف الوضع كلية بالمقارنة مع بدايات هوسرل، و بالتحديد فيما يتعلّق بالأزمة، إذ إن إحقاق فكرة الإنسان تتعلّق بالإنسان بما هو وجود نقلي و روحي (علوم الروح أوالفكر)، أي بما هو تراث و تاريخ، و هاهنا يبقى هوسرل مخلصا للتحديد المتافيزيقي للإنسان ككائن عاقل (ديكارت) غير ان هذا العقل، و على خلاف ديكارت مرتبط بصورة حميمية و لصيقة بالتاريخية. ليس المقصود بـ"الإنسان" في هذا المقام تسمية الواقع الاجتماعي أو الطبيعي و إنما يقصد به عملية التلازم المنطقي لمشروع غائي، لمهمة لانهائية، و بالتالي يتعلّق بإنسان فلسفي، بالإنسان كتصوّر فلسفي، لأن الفلسفة، أي مشروع العلم الكوني، هي بالنسبة لهوسرل غاية التاريخ (Le télos de l'histoire). إذن بالنسبة له التاريخ و بمعنى ما دوما هو "تاريخ الفلسفة" (histoire de la philosophie) و كانتا هاهنا يصند الحديث عن فلسفة هيغل (Hegel) و لكن من دون نهاية للتاريخ بأروزيا (Parousie) (حضور مطلق) المطلق في

[61] Husserl (E) : Philosophie comme science rigoureuse, 4ème éd, Coll EPIMETHEE, P.U.F, Paris, 2005. P 79.

العرفان المطلق. إن مقاربته (أي هوسرل) للتاريخ في الواقع أكثر كانطية من كونها هيغلية رغم وجود بعض التماثلات المعجمية التي يمكن أن نجدها في مدح هوسرل للاكتفاء الذاتي للروح في محاضرة فيينا (1935).

إن الفكرة التي تحكم التاريخ، المعرفة المتطابقة مع العالم، "فكرة بالمعنى الكانطي" (كفكرة السلام العالمي مثلا) أي مثال مقوّم و دليل على مهمة لانهائية هي التاريخية التي تفتح أفقا غير متناه المعالم، و غير متعلّق الغَيَابَات.

إذن فليس من المفارقة في شيء كون الفينومينولوجيا تتناول التاريخ بالدراسة مادامت ستعمل على تكييفه وفقا لمنطلقاتها المنهجية أي بما هي فلسفة الوعي الخالص، ذلك أنها ستوجه قصدياتها نحو فهم التاريخ و الأزمة وفقا للتدهور الفكري الذي تسببت فيه التيارات الفكرية و الفلسفية و العلمية، أي ما يسمى بالتراث الأوروبي لأن "كل فلسفة عظيمة ليست مجرّد حدث تاريخي، بل غنها تلعب عبر مجرى حياة الفكر الإنساني دورا غائيا وحيدا، غنها المقام الرفيع الذي بإمكان تجربة المعيش تبلغه..."[62] و هذا العمل المفترض القيام به هو ذاته عملية التوحيد بين تاريخ الفلسفة و فلسفة التاريخ. يحاول هوسرل أن يجعل نوعا من التطابق بين تاريخ الفلسفة وفلسفة التاريخ اللتان لم يتم استكمال مهمتهما الفكرية خصوصا على المستوى الروحي، و لهذا نجده يقارب علوم الطبيعة التي حققت تطورها في مقابل علوم الروح أو الفكر بعد. علما أن الفعل التاريخي هو في نظر هوسرل، ليس موضوعا قصديا على مستوى الوعي. هذا ما ورثه هوسرل من قراءة الديكارتية (تأملات ديكارتية) عبر مفهوم "النموذج" المكتمل و ضرورة التوجه نحو غائية المعنى التاريخي العقلاني و هو ما به يتحقق الموقف الترانساندانتالي للتاريخ: "فمتى تبيّن أن قصد استئناف التاريخ ليس الا استئنافا للفلسفة الحديثة، فإن التأمل في معنى التاريخ هو مقتضى لاستكمال البنية التي تتحكم في الحداثة . أي لاستكمال التاريخ . ولتحديد إمكان التفلسف الفينومينولوجي أي انطلاقا مما أطلقه المحدثون".[63]

إن بدء "الأزمة" (Krisis I) يربط التاريخ بالفلسفة عبر وساطة "معنى الغائية": "هنا المؤلف[...] يحاول تأسيس الضرورة الحتمية لتحوّل الفلسفة على الفينومينولوجيا الترانساندانتالية عبر طريق الوعي بالغائية- التاريخية(La conscience téleologico-historique) المطبّقة

---

[62] Ibid. P69.

[63] إنفزو (ف)، هوسرل و استئناف الميتافيزيقا، (ب ط)، دار الجنوب، تونس، 200، ص 88.

على أصول الموقف النقدي حيث تكون على مستوى العلوم والفلسفة، إن هنا المؤلّف (الأزمة ا) يؤسس منذ الآن لمقدمة مستقلة عن الفينومينولوجيا الترانسانتالية" و بهذا سيكون التاريخ ضميمة عرضية للفلسفة التي تصبح الطريق المفضل للولوج إلى إشكاليتها. فإن لم يُفهَم التاريخ إلا عبر الفكرة التي تتحقق فيه، فإن حركة التاريخ من الممكن أن تصبح في نظر المؤرّخ إلهاما أصليا لموضوعات متعالية إن كانت هذه الموضوعات تمنح للتاريخ فعلا كيفياتها الخالصة.[64]

يقول هوسرل في كتاب "الأزمة" §15، الموسومة بـ "تأملات في مناهج التأمل التاريخي": "هذا الجنس من إيضاح التاريخ التي نتوجه بواسطته إلى الاستفهام على التأسيس الأصلي للأهداف المرتبطة بتسلسل الأجيال المستقبلية [...] هذا الإيضاح ليس سوى استيعابا، من قبل الفيلسوف للمفهوم الحقيقي لإرادتهن لما هو إرادة في ذاته لتنفذ بما هي إرادة للآباء الروحيين.[65] هاهنا يتجلى الحدث الجديد في فلسفة هوسرل: الخطوط العريضة لفكرة الفلسفة التي لا تقرأ سوى حول التاريخ، و بهذا فإن تاريخ العقل كمهمة لانهائية يتضمّن تاريخا، يتضمّن تحقيقا تقدميّا، و مجرّد العودة على التاريخ هي الملهم الممتاز لمعنى فو- تاريخي (Sens supra-historique) وبالكشف عن الأصل (Ursprung) التاسيس البدئي (Proto-fondation) الذي بإمكانه أن يكون أيضا مشروعا لأفق مستقبلي، تأسيسا نهائيا يمكّن من معرفة الذات و هنا الطابع التاريخي لفهم الذات يتجلى لدى انفصاله عن المعركة المعلنة ضد الحكم المسبق: فقد كان ديكارت يبرّس بأن البداهة معركة ضد الحكم المسبق، و الحال أن الحكم المسبق يمتلكن على الدوام، دلالة تاريخية، إنه متعلّق بالأسلاف أكثر من كونه يمثل إزعاجا: إنه نوع من "الترسّب" (Sédimentation)، فكل ما "يحدث من تلقاء ذاته" هو "أرضية العمل الخاص واللاتاريخي" (An-historique)، و إذن فإنه لن يمكنني التحرر من التاريخ المتواري، المترسّب إلا بالارتباط بالمعنى "المطمور" (المندسّ) تحت "الترسّبات" باستعادته حاضرا وباستحضاره، إن مفهوم "الترسّب" هو ما يفسّر سبب الأزمة، إنه البديهية الأولية التي انطلق منها السابق لعصر هوسرل على أنها صحيحة في مجملها من دون تشكيك فيها ومن دون تنقيح، إنها رؤية العالم التي أرساها الإنسان الحديث ذلك أن

[64] Ricœur (P) : Husserl et le sens de l'histoire, ibid. PP 30, 31.
[65] Ibid. P 35.

العلم الحديث ضيّق الأفق و يجب بذلك الانتقال إلى الموقف النظري الذي يحقق تخلّص و تحرّر الإنسان بإقباله على العالم و على نفسه و هو ما يحركه معنى الغائية.[66]

الدرس الفينومينولوجي في التاريخ:

تكشف تطبيقية الفينومينولوجيا لراهن العصر الحديث عن نقطة البدء المتمثّلة "الحداثة" بما هي موطن الفكر التاريخي و الذي يمثّل مجال التأمل الفلسفي ك "ظاهرة" جديرة بالتحليل الفينومينولوجي، كموقف كلي، قد طرأ عليه تحوّل كبير و تغيّر كثير، لأن الحداثة ليست فعليا كما هي على مستوى الإمكان. إن التفكير إذن في "معنى التاريخ" ذو ارتباط وثيق بما يسمى بالموقف القديم (الإغريق) بموجب التقابل بين ما يتضمّنه مفهوم العلم من: "نظر" و "تطبيق" يمكّن من تحديد الموقع التاريخي للإنسان، أي معنى التاريخ المحايث على نحو كلي، ف "أوروبا لوحدها تمتلك 'غائية محايثة' (téléologie immanente)، "معنى" على خلاف الهند، الصين إذ لا تمتلكان إلا نمطا سوسيولوجي إمبريقي. إن أوروبا تمتلك وحدة الصورة الروحية، فهي ليست مجرّد مكان جغرافي وإنما روابط روحية تمثّل مقصدا (Visée). "حياة، فعل و إبداع ذو طابع روحاني". نلاحظ إذن الرقي الذي يتمتّع به مفهوم الروح (Geist) إنه ليس تراجعا نحو الطبيعة، و إنما استرجاع لقطب الوعي التقوّمي بالتوافق مع الروابط الإنسانية.[67]

أما من جانب الوحدة النظرية للفلسفة، باعتبار تحوّلها لدى العصر الحديث، فإن مستوى ممكن الميتافيزيقا هو في الآن نفسه ممكن العلوم الجزئية، و بالتالي، سؤال وحدة النسق العقلاني الذي يُخضع تعامل المحدثين مع مسألة المعقول و الأساس الأنطولوجي بوصفه ممكنا في إطار العلاقة بين العقل و الوجود. هذه التصوّرات المتكاملة التي كان من "الواجب أن تكون" لم تكن في حقيقة الأمر واقعا و فعلا، و منه، و بصورة مباشرة يمكن استنباط الوضع الراهن في العصر الحديث المتعلّق ببنيته انتظام المواقف والأنساق، الذي هو رهين الصور الكاملة لفعل التفلسف حول ظاهرة الحداثة و فقدان لها في ذاته، فالحداثة هي التي تحدد التاريخ بما هو غائية. إن هذه الغائية هي التحديد الجوهري النهائي لمكانة إنسان العصر

---

[66] Voir : ibid. P 35.

[67] Husserl (E) : La crise de l'humanité européenne et la philosophie, ibid. PP 29, 45.

الحديث و لإنسانية تحمل المعنى ذاته. إن معنى "الإنسان" لا يمكن العثور عليه سوى في "الذاتية الترانساندانتالية" لأنه يحتوي على الكمال (Entéléchie) الإنساني، كما تمّ تحديده لدى الإغريق. "إن الكمال هو عودة الإنسان إلى نفسه مستجيبا لجوهر العقل النظري و تحقق المعقولية فيه".[68]

و على هذا فإن المكانة التاريخية للفلسفة ليست مجرّد قراءة لتاريخ الفلسفة ولغائيته، و إنما هي منعطف التاريخية التي ستصبح موضوعا مطلقا للتفكير الفلسفي من حيث إمكان الميتافيزيقا هو الشرط الأساسي لفهم إمكان العقل و من ثمة الحصول على معنى الفلسفة بصورة كاملة و استكمال للتاريخ ضمن جوهر الإنسانية. هذا هو مجال التطابق "التاريخي" بـ "الفلسفي" في صورته المطلقة. يتم هاهنا إعلان التوحّد الكامل بين البعد الميتافيزيقي و الإيتيقي اللذان يؤسسان تصوّر التاريخ عند الإغريق الذين يتصوّرون بأن أكمل صورة للإنسان تكمن في بلوغ هيبة الفلسفة و امتلاك ناصيتها. عن الموضوع الأساسي إذن ليس هو الأحداث التاريخية الجزئية، الخارجية والزمانية، المبسوطة على سبيل الانتظام السببي للصيرورة الزمانية و إنما هو التاريخ الكوني الخالي من جروح الزمان و تغيّراته، هو تاريخ "الروح".

الفلسفة إذن هي الكمال الأوّل لأوروبا، هي "الظاهرة البدئية" (Proto-phénomène) لثقافتها و هي غاية التاريخ، و هي الإصغاء الأجود لمعنى الإنسان الأوروبي، إن الفلسفة هي الغاية و "صورة معيارية مُوَقْعَنة في اللانهائي"، قطب من "اللانهائي"[69] ذلك لأنها تقصد اكتمال العلم في صورته الشمولية. بهذا المعنى تتحقق عملية التماهي بين ضربين مختلفين من المعرفة: الفلسفة و التاريخ، التي لم تكن نتيجة للجدل التأملي بقدر ما كانت بمقتضى الاكتمال النموذجي لمعنى التاريخ الفلسفي، و لذلك التّماهي (التطابق) قد كان ممكنا عبر الوساطة المزدوجة: تحديد المعقولية من حيث إنها عنصرها الفلسفي (النظري) و من جهة تحديدها الإيتيقي (الأنثروبولوجي). هذه هي الشروط "المتعالية" للتاريخية و لفهم سيرورة تاريخ الفلسفة وفقا لمعنى المعقولية المنكشفة كفكرة لامتناهية كردّ على تاريخانية (historicisme) الحضور. و من هنا يتحقق الكل في الكل و يتوحد الكل مع الكل و لكن من دون نهاية و تصبح: الألوهية الإنسانية، الحداثة، التاريخ و الفلسفة

---

[68] إنغرّو (ف): هوسرل و استئناف الميتافيزيقا، نفسه، ص 95.

[69] Ricœur (P) : Ibid, P32.

نفس المعاني لوجود واحد، وجود كثرة تنبثق من الواحد، و وحدة تعدد المتكثّر، هنا تصبح مسألة الألوهية ضرورية الطرح، فالله بما هو عقل مطلق "غير موجود"، المر الذي يعني بأنه غير لانهائي راهن و لكن بما هو فكرة مرتبطة بالزمان اللانهائي و أفق التاريخ (horizon de l'histoire)، اصله و تناهيه و هو سرّ استمرارية التاريخية وأفقها، ليس الله سوى العقل القادم على الذات- نفسها في سيرورة اللانهائي و التاريخ ذاته يقدّر ك "التحقيق الذاتي" -(auto-réalisation) للألوهية، و هو ما قاله هوسرل في نهاية المطاف فإن فكرة الله لدى هوسرل تتماهى مع فكرة الإنسانية الكاملة، مع إنسانية عقلانية، هذا ما كان مؤجّلا (معلقا) في بداية هوسرل الفكرية و ما سمي بالإلحاد المنطقي المؤقّت فإنه لم يكن سوى لترتيب و تأجيل منهجي ضروري فقط، لا شيء أخرن و لهذا فقد كانت الأزمة -(Non-essence/un-wessen) قدرا يتمّ التخلص منه بالبحث عن غائية التاريخ الأوروبي التي وحدها الفلسفة بعطاء معناها.[70]

مراد قواسمي —
كلية العلوم الاجتماعية
جامعة مستغانم

[70] Husserl (E) : La crise de l'humanité européenne et la philosophie, ibid. P103.